أثر القرآن الكريم في شعر سبط ابن التعاويذي

د. ميسر سليم الشورة*

تاريخ وصول البحث: 2022/11/14م تاريخ قبول البحث: 2023/2/20م

الملخص

يهدف هذا البحث إلى الوقوف على ظاهرة التأثر بالقرآن الكريم، أو ما يسمى في العصر الحديث (التناص)، حيث وجدت هذه الظاهرة عند كثير من الشعراء بغزارة، فقد تجلّت قداسة القرآن الكريم في كل أرجاء الكون وجوانب الحياة فنهل منه الشعراء ما يعظّم نصوصهم ووظفوه في أشعارهم، لكن هذا التوظيف يتباين من شاعر إلى آخر في طريقة التأثر بنص القرآن الكريم؛ لذا وقفت على شعر سبط ابن التعاويذي الذي عاش في فترةٍ زمنيةٍ وبيئةٍ تتطلب العودة إلى تعاليم الدين الحنيف بأشكالٍ متعددة، مما جعل الشاعر يحاكي نص القرآن الكريم وينسج منه نصه الشعري ممزوجاً بتجربته الشعرية التي تنسجم مع دلالات وتراكيب ومواعظ دينية، يستدعيها الموقف فتخرج مشحونة بالانفعال، وذلك ينم عن ثقافةٍ دينيةٍ غزيرة يتمتع بها الشاعر فأصداء البيئة والتربية كانت واضحة المعالم في أشعاره؛ مما جعلني أقف متأملة أشعاره التي تخالطها تعاليم ومفردات ومعاني القرآن الكريم بطرق وصور متعددة منها:

1. التأثر المباشر.
2. التأثر غير المباشر.
3. الإشارة والتلميح.

الكلمات المفتاحية: (النص الشعري، القرآن الكريم، المحاكاة، التأثر، مشحونة)

* أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية، جامعة العلوم الإسلامية العالمية.

The Influence of the Holy Qur'an on the Poetry of Sebt Ibn Al-Tawidi

Abstract

This research aims to contemplate the phenomenon of being influenced by the Holy Qur'an, or what is called in the modern era (intertextuality), where this phenomenon was found in abundance among many poets. The holiness of the Holy Qur'an was manifested in all parts of the universe and aspects of life, so poets extracted from it what they glorify their texts and employed it in their poems. However, this employment varies from one poet to another in such a way that the text of the Holy Qur'an is affected. Therefore, I stood on the poetry of the grandson of Ibn Al-Ta'awidi, who lived in a period of time and an environment that required a return to the teachings of the true religion in various forms, which motivated the poet to imitate the text of the Holy Qur'an and weave from it his poetic text mixed with his poetic experience, which is consistent with religious connotations, structures, and sermons that the situation necessitates, and thus it emerges charged with emotion, which reflects the abundant religious culture that the poet enjoys. Thus, the echoes of the environment and education were clear features in his poems, which made me pause and contemplate his poems, which are mixed with the teachings, vocabulary, and meanings of the Holy Qur'an in various ways and forms, including:

1. Direct influence.
2. Indirect influence.
3. Pointing and hinting.

Keywords: Charged, Holy Quran, Influence, Poetic text, Simulation.

مدخل:

يمثل القرآن الكريم عنصراً أساسيّاً من عناصر الحياة والثقافة والفكر عند الأمة، لأن ذلك قد تأصل في النفوس والعقول بأنه المصدر الأول للتشريع في الحياة بكافة جوانبها، هذا فضلاً عن القناعة الراسخة في عقول الأمة بأنه النموذج الأعلى في الفصاحة والبيان، وهذا لم يختلف عليه اثنان، ومن ثمَّ وجدنا الشعراء في العصور الأدبية جميعها يبحثون وبعناية فائقة عمّا ينقّح ويُعلي من مراتب أشعارهم، فلم يجدوا مصدراً أغنى من القرآن الكريم. ويظهر ذلك جلّياً في أقوال النقَّاد التي يظهر فيها الحث المباشر للشعراء أن يستقوا من مادته الغنية ببيانها وبلاغتها ومعانيها وألفاظها، فهذا هو الجاحظ يقول أنَّ العرب "كانوا يستحسنون أن يكون في الخطب يوم الحفل، وفي الكلام يوم الجمع آيٌ من القرآن الكريم، فإنّ ذلك ممّا يورث الكلام البهاء والوقار والرقّة، وسلس الموقع" [1]. وقد عدَّ النقاد الإفادة من القرآن الكريم بتنوع أشكالها، إثراءً للنص الأدبي، مما يزيد من فاعلية تأثيره في المتلقي، بما يكتسبه من جمال وبهاء ورتابة تتجلى في أسلوبه وغايته وهذا مما أشار إليه الثعالبيّ، حيث قال: "قصارى المتحلّين بالبلاغة، والحاطبين في حبل البراعة أن يقتبسوا من ألفاظه ومعانيه في أنواع مقاصدهم، أو يستشهدوا ويتمثّلوا به في فنون مواردهم ومصادرهم، فيكتسي كلامهم بذلك معرضاً ما لحسنه غاية، ومأخذاً ما لرونقه نهاية، ويكسب حلاوة وطلاوة". [2]

ولا ريب في أنَّ ذلك التأثر يفتح أفاقاً جديدة في ذهن المتلقي حيث يقف متأملاً أمام أصالة النصوص وقداستها، وكيف لها أن تؤخذ بمعزل عن مناسبتها ووجها الإيماني.

هذا فضلاً عن طبيعة العصر وتجلياته التي تبعث في النفس التعصّب الدينيّ، وترسّخ الصبغة الإسلاميّة في كل مظاهر الحياة؛ لما وقع في عصر الحروب الصليبية حيث حُورب الإسلام والمسلمين في عقر دارهم، إذ أدركت الأمة آنذاك "أنّ الحروب التي قام بها الفرنجة في بلاد الشام (ومصر) تمثّل تهديداً للإسلام في عقر داره، ولذلك رأى أنّ التعصّب الدينّي الذي يحمله الغزاة والعداء المستحكم للإسلام في نفوسهم لا بدّ له من إنعاش للإسلام في نفوس أهله، وتقوية الشعور بما يتهدّدهم من أخطار".[3] تنبه العلماء والأدباء إلى الطابع الذي يجب أن يصطبغ به أدب العصر، فتعاظم الحسّ الدينيّ في أدب العصر، وتمثل بجوانب متعددة منها المدائح النبوية والشعر الصوفيّ وأدب الجهاد، فتغلغلت الروح الدينية في أغراض الشعر الأخرى، بقصد أو بغير قصد، وقد تمثل ذلك في مظاهر متعددة منها التأثر بالقرآن الكريم واستحضار تعاليمه وآياته في أدب العصر، حتى عدّ عنصراً أساسياً من عناصر التعبير لدى كثير من شعراء العصر، وهذا ما

نحن بصدد دراسته حيث وقفت على دراسة شعر الشاعر سبط ابن التعاويذي وتأثره بالقرآن الكريم، وعلى الرغم من وجود دراسة بعنوان التناص في شعر سبط ابن التعاويذي للطالبة ندى سالم عيدان الطائي، لكنني توصلت بعد القراءة المتأنية لها بأنها دراسة اتخذت جانباً بسيطاً من التأثر بالقرآن وركزت على التناص التاريخي والأدبي أكثر من التأثر بالقرآن الكريم، لذا ارتأيت أن أقف على دراسة شعر سبط ابن التعاويذي حينما لفت انتباهي التأثر الكبير والمتعدد الطرق في الإفادة من القرآن الكريم.

مظاهر التأثر بالقرآن الكريم تتعدد أشكال الإفادة من القرآن الكريم وتتنوع، وقد يستحضر الشاعر آية من آيات القرآن الكريم تتناسب مع الفكرة التي يريد إيصالها إلى المتلقي. فتكون الإفادة مباشرة حيث يتناسب مضمون الآية مع فكرة الشاعر، وكأنه بذلك قدم للمتلقي دليلاً قطعياً لفكرته بردفها بتعاليم القرآن الكريم لما له من قداسة في ذهن المتلقي، والإنسان حينما يُحارب بتعاليم دينه، تنتشي المشاعر الدينية عنده تلقائياً، بفطرته يعود إلى دينه ويحاول أن يبرز الجانب المشرق من حياته، لذلك وجد الشعراء العودة إلى تعاليم الدين من خلال القرآن الكريم بأنها الطريقة المُثلى لإشهارهم وسماع أصواتهم وترددها في المحافل والمناسبات، كما كان للمتلقي دورٌ كبيرٌ في انتشار الصبغة الإسلامية لأنه يتوق إلى ذلك تماشياً مع تحديات العصر الذي يعيشه، فتعالت الأصوات وترددت النبرات واقتبست الآيات وصبغت الأذواق بطابع يرضي المشاعر المكبوتة، حيث كان الأدب بمثابة متنفس للأمة تعبر به عن أفراحها وأتراحها، وأهازيجها، ترنو إليه كلما حاد صوبها منادٍ. فكان القرآن الكريم منهلاً عذباً يتناسب مع كل جوانب الحياة ومناسباتها ببلاغته وفصاحته وبيانه وتعاليمه؛ لذا وقف الشعراء ينهلون من عباب خيراته بتنوع أساليبهم وطرق الإفادة من هذا المنهل العذب، باعتباره ماده غنية بالقيم والتعاليم في التعبير عن مشاعرهم وأفكارهم، وما يتناسب مع ذوق المتلقي الذي يعد عنصراً أساسياً في العملية الإبداعية، فإن للكلمة المعبّرة والفكرة الناضجة أعمق الأثر في النفس، وأكبر التأثير في المشاعر، وهذا ما كان يصبو إليه الشعراء في كافة العصور الأدبية، فالحوادث والنوازل تخلق أدباً جديداً يتناسب مع ظروفها ومحطاتها. لذا ارتأيت أن أجعل هذا البحث يدرس التأثر الديني على وجه الخصوص في شعر سبط ابن التعاويذي، وذلك من خلال ثلاثة مسارات يسبقها تفصيل لمسار حياة الشاعر وثقافته وعصره.

أما المسار الأول فهو التأثر المباشر.

أما المسار الثاني فهو التأثر غير المباشر.

أما المسار الثالث فهو الإشارة والتلميح.

ثم الخاتمة حيث توصلت إلى مجموعة من النتائج.

شخصية الشاعر، ومكانته:

هو محمد بن عبيد الله بن عبد الله سبط ابن التعاويذي نسبة إلى جده لأمه الذي كان يعمل في كتابة التعاويذ، وكان عالماً جليلاً معروفاً بالسيرة الحسنة، والتقوى والصلاح وكان الناس يتبركون به لأنه كان يرقي ويكتب التعاويذ. (4)

بدأ ميل الشاعر إلى الأدب في مراحل مبكرة من عمره، وخاصة الشعر، فدار في سراديقها يغوص في لجاج اللغة؛ يلعب منها كل شاردة، وواردة، حتى نبغ وقوى عوده. (5)

لم تكن البيئة بمعزل عن شخصية الشاعر فلا بد أن تترك بصماتها الواضحة، ومعالمها الجليّة في زاده العلمي وتفاصيل حياته، حيث كان جليس شيوخ عصره ينهل من عبابهم اللغة والفقه والأدب، فغُرس فيه الاعتداد بالنفس.

والرفعة والشموخ، إذ يقول:

وَتَعلَمْ لا تَلَقْتُكَ من الأيامِ نَبْوَه
أنني ما زِلتُ ذا تِيـ ـه مع العَدْمُ ونَخْوَه
قل أَنْ أضْرَعَ أو أركب للأَطماع صهوه
ذا إباء أخذ الرز ق بحد السيف عنوه (6)

كما كانت تربطه علاقة طيبة مع الخلفاء والوزراء من معاصريه، وكان على درجة عالية من الثقافة، وذلك تأتى من سعة اطلاعه، هذا فضلاً عن البيئة المحيطة بالشاعر إذ خالط فحول الشعراء، ونهل من معينهم الذي لا ينضب، فامتلأت قريحته بنتاجهم، وتشرّب ثقافتهم ونبغ عمن سواه، وتفرَّد بقالب فني خاص، حتى أصبح أحد ثلاثة من فحول شعراء عصره هم:

الحيص بيص سعد بن محمد بن سعد أبو الفوارس المتوفى سنه 574 هـ، ومحمد بن بختيار بن عبد الله المعروف بالأبله البغدادي المتوفى سنه 579 هـ، ومحمد بن علي المعروف بابن المعلم الواسطي المتوفى سنه 592 هـ (7)

فقد تظافرت مجموعة من العوامل كانت روافد أساسية في تجربة الشاعر؛ مما أثرى مخزونه البلاغي واللغوي؛ لما انماز به من إطلاع على دقائق اللغة معانيها وألفاظها، خاصة أن الشاعر قد

عاش في عصر ساءت بعض جوانب الحياة واضطربت. إلا أن الحركة الثقافية شهدت تطوراً ملحوظاً.

كان له كبير الأثر في أدب الشاعر وموضوعاته، ومن الروافد التي نهل منها الشاعر القرآن الكريم إذ يعد المصدر الأساسي الذي ساعده على تكوينه الإسلامي وأثر ذلك على أدبه، وجعله يتميز على أقرانه بموهبة شعرية عدت أساساً في إبداعه. إذ انماز بعاطفة جياشة، وأذن موسيقية تطرب لكل ما تسمعه انصبّ ذلك كله في أدبه. [8] فجاء شعره متسقاً مع موهبته وبيئته ومحيطه الثقافي.

وقد شهد له أدباء عصره والمؤرخون بالمكانة التي يحتلها بين أقرانه.

يقول ابن خلكان: "وعلى ما أعتقده لم يكن قبله بمائتي سنة من يضاهيه". [9] أما صلاح الدين الصفدي فقد قال: "كان شاعراً منطقياً سهل الألفاظ عذب الكلام منسجم التراكيب"، [10] ويذكره العماد الحنبلي قائلاً: "كان شاعراً لطيفاً عذب الكلام سار نظمه في الآفاق، وتقدم على شعراء العراق". [11]

قال ياقوت الحموي في حقه: "كان شاعر العراق في وقته"، [12] ترك إرثاً عظيماً يبوح بأسرار عصره وخلجات روحه، وبصمات بيئته التي أورثته اللغة والبلاغة حتى امتلأت قرائحه بنتاج ما سبقه من فحول الشعراء، واللغة مثل: المبرد والخليل بن أحمد الفراهيدي في علوم اللغة، وأسس علم النحو موغلا في معاجم اللغة محيطاً بمفرداتها. [13]

يقول محمد زعلول سلام: "إن ابن التعاويذي جمع بين الشعر، والكتابة إلا أنه احتفظ في شعره بمكانة رفيعة"، [14] لم يكن كلاماً اعتباطياً ما قيل في حق الشاعر سبط ابن التعاويذي، فقد تميز بنتاجه الأدبي الذي تظافرت فيه ظروف عدة فنقّحته وعدّلت مسيرة مما جعل القاصي والداني يشهد له.

-التأثر المباشر بالقرآن الكريم:

كان للثقافة الدينية السائدة في عصر الشاعر كبير الأثر في أدب تلك المرحلة الزمنية التي تعرضت لها البلاد إلى هجمات شرسة من قبل الصليبين؛ مما جعل الأمة تلتفت إلى الخطر المحدق بشريعتها، فتعالت الأصوات وزمجرت الحناجر بالعودة إلى الشريعة الإسلامية، لأن الحرب القائمة كانت بالدرجة الأولى عقائدية، فوقف الأدباء والشعراء متأملين تراثهم ومستلهمين

شعائر دينهم من عقيدتهم السمحة، لما في ذلك من أثر كبير في نفوس الأمة التي تعاني من القهر والظلم والاضطهاد الذي وقع على كاهلها.

فكانت الفرص مواتية لأن ينهل الشاعر من مصادر تشريعه، وهذا ما نجده عند سبط ابن التعاويذي الذي استدرك ما يطلبه ويصبو إليه المتلقي، هذا فضلاً عن الثقافة الدينية التي يتمتع بها الشاعر.

فجاء بنص الآيات القرآنية دون أن يجري عليها أدنى تغيير، فحينما تقع على مسامع المتلقي، يستحضر نصها القرآني ومناسبتها، فتتأجج مشاعره تجاهها. فقد ربط الشاعر ربطاً محكماً بين الآيات القرآنية التي تتناسب مع الأفكار التي أراد أن يوصلها إلى المتلقي، فاستحضرها بكامل إيحائها لتشكل نقطة مركزية في ذهن المتلقي، تتضافر منها الرؤى والمعاني، فتبعث في النفس توقاً إلى تحقيقها، حيث ينسجم النص القرآني بقداسته مع النص الأدبي، فتطغى العاطفة الدينية في استلهام الأدب الذي يعالج قضايا تعيشها الأمة رغماً عنها، فتبحث في أروقة الأدب عن حلول قد تُرضي الهوى والنفس وتعلل الخاطر.

يقول سبط ابن التعاويذي: الطويل

نَجْلاَءُ لا النَّافِثَاتُ تَبْلُغُ ما بَبْلُغُهُ سِحْرُهَا وَلاَ الْعُقَدُ [15]

يتريث سبط ابن التعاويذي في توظيف نصوص القرآن الكريم، فهو يستلهم المعنى ثم يدرجه في نصه الأدبي معبراً به عمّا أراد إيصاله إلى المتلقي، لكنه يعي الفهم القويم لهذهِ النصوص القرآنية المعبرة عن معانيها في نسقها القرآني.

يفيد منها هالة إيمانية تترسخ في ذهن المتلقي، يستحضرها فيكتسب النص قداسةً حتى وإن اختلف السياق لكل منها. تنعكس معاني الآيات القرآنية في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ لفَلَقِ ١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ٣ وَمِن شَرِّ لنَّفَّٰثَٰتِ فِي لعُقَدِ ٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ٥﴾[الفلق: 1 – 5]

يوظف الشاعر الآيات القرآنية من سورة الفلق توظيفاً مختلفاً عن السياق الذي وردت فيه هذه الآيات، فق جعل منها أعجوبة لمحبوبته التي لم ينلْ سحر جمالها الساحرات فسحر جمالها يفوق كل القدرة التي يتمتع بها الساحر والجان، ولو تأملنا سياق هذهِ الآيات لوجدنا الأمر مختلفاً تماماً فهي حصن حصين للمؤمن من شر ما قد يحاك له من الجان والإنس، لكن الشاعر استوحى ذلك المعنى ووظفه لحالته الوجدانية التي تنم عن فهم وإدراك لكل معنى في سياقه الخاص.

قد ينسجم الإيحاء الذي أراده الشاعر في نصه الأدبي مع السياق القرآني لفظاً ومعنى، فتفرض العبارة القرآنية سيطرتها على النسيج الأدبي، للتوافق الذي أراده الشاعر في المعنى، فتتعانق العبارات لتشكّل نسيجاً متناسقاً دلالة وتركيباً.

وفي ذلك يقول: [17] الخفيف

وَبِهِ يُرتَجَى النَّجاةُ إِذا حُصِّلَ يَومَ الْحِسابِ ما في الصُّدورِ
أَنتَ رَبُّ الزَمانِ تَجري بِتَصريفِكَ في أَهْلِهِ يَدُ الْمَقْدُورِ
وَاللَيالِي خَوادِمٌ لَكَ وَالأَيامُ فَاِحْكُمْ حُكْمَ الْعَزيزِ الْقَديرِ

صفات لا تليق ربما إلا بصاحب العرش المجيد، لكنّ الشاعر يغالي ويبالغ في صبغها على ممدوحه فتجعله المنجي يوم الحساب من العذاب والمرشد والخليفة الحق ورب الزمان، القادر على تصريف أموره، هذه القداسة جعلته يستوحي من القرآن الكريم صفات يراها تليق بممدوحه (الناصر لدين الله).

من قوله تعالى: [18] ﴿أَفَلَا يَعلَمُ إِذَا بُعثِرَ مَا فِي لقُبُورِ ٩ وَحُصِّلَ مَا فِي لصُّدُورِ ١٠﴾[العاديات:9 - 10]

وقوله تعالى: [19] ﴿أَوَ لَم يَرَواْ أَنَّا نَأتِي لأَرضَ نَنقُصُهَا مِن أَطرَافِهَا وَللَّهُ يَحكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكمِهِۦ وَهُوَ سَرِيعُ لحِسَابِ﴾ [الرعد:41]

تمتزج المواقف وتتشابه في ذهن سبط ابن التعاويذي، فيكشف الحجاب عن ثقافته الدينية ويستل منها ما يتناسب مع المعنى الذي أراده، تتعانق الرؤى لتشكل نسيجاً دينياً أدبياً تخالطه قداسة، تحيل المتلقي إلى مستمع مطيع وهذا ينم عن الثقافة الدينية الواسعة التي يتمتع بها الشاعر، فكأنه يستعرض ألفاظها ومعانيها من خلال أشعاره، فيرفد صوره وقوته من النص القرآني، يقول مصوّرا القوة والبأس التي يتمثل بها ممدوحه في جهاده: [20]

رُبَّ يَومٍ جَهِمِ الثَرى قاتِمِ الـ جَوّ عَبوسٍ عَلى العِدى قَمطَريرِ

وذلك ينسجم مع النص القرآني في قوله تعالى: [21] ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَومًا عَبُوسا قَمطَرِيرا﴾ [الإنسان: 10] فهو يوم شديد الصعوبة، شديد البلاء.

يطالعنا سبط ابن التعاويذي بمعانٍ لها نفحات إيمانية تتخلل مناسبات ومواقف قد مرَّ بها الشعار، تتفيأ خلال النص القرآني، مغترفاً منه ما يتلاءم مع نصه الشعري، ونراها أحياناً يحاكي النصوص ويحاورها حتى وإن اختلفت المواقف والمناسبات، لكنه يفيد منها المعنى العام ويوظفه توظيفاً ينسجم مع اللفظ دون المعنى، فيحسن الاختيار، لما يتمتع به من ثقافة دينية رحبه،

استطاع من خلالها أن يولّد نصوصاً مفعمة بالنفحات الإيمانية التي تهز مشاعر المتلقي، فالإنسان بفطرته ينسجم مع النفحات الإيمانية فنراها أكثر تأثيراً من غيرها، يقول في تعبيره عن حاجته: [22] المتقارب

إذا صَرَّدَ الباخِلونَ العَطاءَ سَقَتكَ يَداهُ بِكَأسٍ دِهاقِ

فقد استطاع الشاعر أن ينتقى ألفاظه ومعانيه بدقة، بحيث يصل إلى مرتجاه، فالرغد والهناء والشراب بما لذ وطاب صورة جميعنا نتوق إليها في جنات النعيم، وذلك يتطابق مع المعنى الذي يرقى إليه الشاعر ويأمله من ممدوحه، مما يجعله يستغني عن عطايا الآخرين، وهذا يقودنا إلى قوله تعالى: [23] ﴿وَكَأسا دِهَاقا﴾[النبأ: 34]

لم يكن سبط ابن التعاويذي سطحياً في الإفادة من القرآن الكريم، بل كان ينتقي ويتفحّض ما يتناسب مع لفظه ومعناه، فيستمد شاعريته البشرية من قداسة النص القرآني الماثلة في قناعاته، حيث تستمد الذات المبدعة شاعريتها البشرية من قداسة النص القرآني. [24]

وما يستدعي الانتباه بأن سبط ابن التعاويذي، يأتي بالدلالة الأصليّة للآيات القرآنية فيسندها لله ﷻ، لكنه يؤكد بها ويعضد دلالته الشعرية، فتتضافر الدلالة الدينية مع الدلالة الشعرية التي أرادها الشاعر، وهذا يعزز قوة التأثير في نفس المتلقي.

ففي قوله: [25] الكامل

إن كُنتَ تُنكِرُ مَأثُراتِ قَديمِهِم فَاِسأَل بِها يا أَيُّها المُزَّمِّلُ

يشيد سبط ابن التعاويذي ببني العباس، فيجعل لهم الأحقية في الخلافة، وذلك يتأتى آية من الذكر الحكيم كما يذكر فإن كان أدنى شك في ذلك، فالإجابة من خالق الخلق لهم بذلك: [26] ﴿يَأَيُّهَا لمُزَّمِّلُ﴾[المزمل:1].

لم يقف الشاعر عند حدود الانسجام والتضافر بين النص القرآني والشعر، بل تخطى ذلك إلى إفادة أخرى من نصوص القرآن الكريم تقتضيه الحاجة إلى ذلك، فيقصد إلى التلاعب بالمعنى، حيث يفيد من النص القرآني المعنى العام، لكنه يترك له قدسيته في زمانه ومكانه، ويضفي على نصه الشعري خصوصية الموقف والحالة التي أرادها، فتنعكس الصورة. وذلك في تصويره للدار التي أستجدها الخليفة المستضيء بأمر الله، فيشبهها بإرم، مدينة الأحقاف، كان يستوطنها قوم عاد، يقول: [27] البسيط

كأنّها إرَمٌ ذاتُ العِمادِ وإنْ زادَتْ بمالِكِها فَخراً على إرَمِ

يباهي الشاعر بهذه المدينة، ويفتخر بوجود حاكم قد زادها فخراً وقوة ومنعة، أما بالنسبة لما ورد في النص القرآني فقد اختلفت النظرة والصورة لتلك المدينة، فقوتها ومنعتها وشدة بأسها لم يمنع دمارها وطمسها من قبل السلطان الأكبر ألا وهو رب العباد، دمرها وطمس معالمها وذلك بسبب غفلة أهلها وكفرهم وعصيانهم لأوامره ﷻ.

فالشاعر أبقى الصورة الأولى لهذه المدينة القوة والجبروت والحصانة ماثلة في ذهنه وبنى عليها صورته الشعرية، ورد ذكرها في القرآن [28] ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ٦ إِرَمَ ذَاتِ لِعِمَادِ﴾ [الفجر: 6 – 7]

لا يخفى على من يقرأ ديوان سبط ابن التعاويذي أن يستدل على مجمل الآيات القرآنية التي يوظفها الشاعر في نصه الشعري مستعيناً بمعانيها وقداستها وتأثيرها الماثل في نفوس المتلقين، وذلك ليس بحاجة إلى إمعان في المعنى وإنما يطفو على السطح ظاهراً جلياً، كما في قوله: [29]

مَلَكَتْهَا يَدَاكَ وَاللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مِنْ عِبَادِهِ مَنْ يَشَاءُ

وهذا ينسجم تماماً مع قوله تعالى: [30] ﴿يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[البقرة: 247]

وهو واضح في النص الشعري يمكن الاستدلال عليه بسهولة، فقد جاءت الآية القرآنية مستقرة في مكانها بمعناها القرآني، لكنها هنا شكلت أحد عناصر النص الشعري، لا بد للمتلقي أن يستحضر معها جميع متعلقاتها الراسخة في ذهنه يستطرد في خياله إلى أعماق الذاكرة ليحاكي ما يتناسب مع الموقف، فترتسم الصورة واضحة المعالم.

ولا يقف عند هذا الحد، بل تنتشي العاطفة دينية تجاه التجربة الشعرية للشاعر، فتنسجم الرؤى وتحدث العدوى بين نصه ومتلقيه. وهذا أقصى ما يبحث عنه الشاعر.

هذا يقودنا إلى أن الشاعر قد امتلأت جعبته من مصادر متعددة، فقد نهل من الماضي العريق بتجلياته وتنوع أغراضه؛ لكنه استقصى حدود الشريعة الإسلامية واستلهم أحكامها وظفر تعاليمها، مما ساعده في تفنن استخدامه بضروب مختلفة، تتناسب مع تجاربه الشعرية؛ ليجسد إحساسه وتعبيره عن أفكاره ومشاعره، ومواقفه إزاء أحداث عدة.

وهذا ما يراه محمد غنيمي هلال: "فما التجربة الشعرية كلها إلاّ صورة كبيرة ذات أجزاء". [31]

استوحى سبط ابن التعاويذي مادته الشعرية من واقع أليم تضافرت فيه عوامل عدة أحدثت فجوة في شعور الأمة، فأراد الشاعر أن يفيد قوة الإحساس بالقضايا العالقة في أذهانها؛ وهذا مما أثرى التجربة الشعرية عنده، وجعل المتلقي يحاكي نصه الشعري مع نصوص القرآن الكريم فيأخذه طائعاً لما فيه من انسجام مع كثير من تعاليم دينه وشريعته. ففي بعض الأحيان تفرض

الآية القرآنية سيطرتها الكاملة على النص الشعري؛ لما فيها من إيحاء إيماني واستدعاء مباشر لنصها.

لذا لجأ إلى الإفادة من القرآن الكريم بطرق متعددة منها:

-التأثر غير المباشر:

ويُعرف هذا عند البلاغيين (بالعقد) وهو: "أن يؤخذ المنثور بجملة لفظه أو بمعظمه، فيزيد فيه، أو ينقص منه، ليدخل به في وزن من أوزان الشّعر ... بحيث يُعرف من البقيّة صورة الجمع". [32] وقد أكثر الشعراء من هذا النوع من التأثر بالقرآن الكريم؛ لأنه يعطي الشاعر مساحة للتعرف في المضمون أكثر من التأثر المباشر. فهو يحل المنظوم ويدخله في سياقه الشعري، بطريقة تتناسب مع الموقف والرؤى، قد يلامس المعنى وقد يحاذيه لكنه يأخذ بشيء من طرفه، فيبقى يحوم في سماه، ومن ذلك قول سبط ابن التعاويذي:

بِكَ عاذَت مِن شَرِّ شَيطانِهِ الـ وَسواسِ فيها وَمُكرِهِ الخَنّاسِ [33]

فقد تصرف الشاعر بطريقته حيث بدل بعض المعاني الماثلة في أذهاننا تجاه الآية القرآنية التي نصها: [34] ﴿قُل أَعُوذُ بِرَبِّ لنَّاسِ ١ مَلِكِ لنَّاسِ ٢ إِلَٰهِ لنَّاسِ ٣ مِن شَرِّ لوَسوَاسِ لخَنَّاسِ ٤ لَّذِي يُوَسوِسُ فِي صُدُورِ لنَّاسِ ٥ مِنَ لجِنَّةِ وَلنَّاسِ ٦ ﴾ [الناس: 1 - 6]

نلمح في هذا البيت قدرة الشاعر على استحضار اللفظ لكنه غيّب المعنى للنص القرآني، فالتلاعب بالألفاظ ظاهر وجلي، وكأنه أراد للمتلقي أن يستحضر النص القرآني بمحاذاة نصه، لكنه سرعان ما يجد الفارق في المعنى الدقيق والإيحاء الإيماني الماثل في النفوس، تتشابه الألفاظ وتتفارق المعاني.

ينقاد الإنسان إلى مؤثرات عديدة في حياته دون أن يشعر فتظهر علاماتها في سلوك حياته دون عناء وبحث عنها، وهذا ينسجم مع قولنا إنّ الإنسان ابن البيئة. فلابد من التأثر والتأثير في تكوينه ورؤيته لكثير من جوانب الحياة، وقد ظهر ذلك جلياً في أشعار سبط ابن التعاويذي، فالأثر الديني يتخلل أشعاره، ويترك بصماته بأشكال متعددة، وهذا يفضي إلى حقيقة مفادها أن الشاعر قد استقى مادته الشعرية من سنوات طوال قد عاشها في كنف جده لأمه الذي كان يكتب التعاويذ ويرقي الناس، فقد تربى في بيئة طابعها إسلامي تؤمن بحقيقة الشريعة ورسالتها السامية، مما جعله ينهل من معينها بما يتناسب مع ظروفه ورسائله.

يشتق سبط ابن التعاويذي من آي الذكر الحكيم، فيقول: المتقارب [35]

فَأُقْسِمُ لَوْ كَانَ مِنْ صَخْرَةٍ لآنَ لها أنّها ترشَحُ

مرجعية الشاعر في هذا البيت قرآنية؛ وذلك بعقده للآية القرآنية التي تتحدث عن القرآن الكريم، وقوة تأثيره حتى على الطبيعة بأن الحجر تتصدع، فكيف بالإنسان الذي يتفكر في خلق الله ﷻ. فالشاعر يشكو قلة حظّه مع كثرة الأنعم الشريفة وانتشار العطاء بين الناس.

(36)﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر:21]

يترك الشاعر للمتلقي بعض الألفاظ التي تفضي إلى معانٍ قرآنية تستدعي بحضرتها، (الصخرة، ولأن، ترشح)، تذهب بالذاكرة إلى (الجبل، خاشع، متصدع).

هذا بالإضافة إلى الجو العام ومناسبة القول. كما أن إنتاج الشاعر يعكس تقلبات حياته وظروفه التي يمر بها في سنين حياته، فلا بد من تعرجات تظهر في أدبه تنم عن انبساط وانقباض، وعليه فإن حادثة فقدانه للبصر لسبط ابن التعاويذي في آخر سنيّ حياته قد شكلت نقطة تحول في حياته الأدبية، وأظلمت نفسه وتحول الوجود إلى ليل سرمدي لا ينتهي، يقول: (37) الرجز

يالَكَ مِن لَيلِ حِجا بٍ جُنحُهُ مُعتَكِرُ

ظَلامُهُ لا يَنجَلي وَصُبحُهُ لا يَسفِرُ

ليل سرمدي لا صبح يفلقه، صورة تبعث اليأس والألم ينقلها الشاعر الى المتلقي، الذي سرعان ما يستذكر ما جاء في أي الذكر الحكيم (38) ﴿ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ﴾[المدثر: 34]

لكن الشاعر يأخذ اللفظ ليوظفه في مكان ومقام لا يتناسب مع المعنى للآية الكريمة، ليفيد معنى جديد ينقلب الى ضده. فضوء الصُبح البيّن في الآية يخدم المكان والمقام، أما ما أراده الشاعر فهو ثباته وعدم انجلائه، وذلك يتناسب مع مقامه ومكانه، والحقيقة أن الصورة من بنات الخيال، (39) يؤطرها الشاعر و يستمدها من مخزونه اللغوي الذي يسيطر على فكره وذهنه ، كما يعتني الشاعر بالانسجام بين مفرداته ومعانيه، بحيث يرسم صورة متناسقة في ذهن المتلقي ينسجم معها، وكأنها لوحة فنية ماثلة أمامه ويعقد مقارنة بين الصورة القرآنية الإيمانية وبين الصورة الشعرية، فتزده وضوحاً في ذهن المتلقي، مما يُلبسها قداسة حتى لو اختلفت الأزمنة والأمكنة والرؤى.

يبرز سبط ابن التعاويذي الغرض والمعاني الذهنية التي تجول في خاطره بانتقائه لشخصيات دينية، لها أثر كبير في نفوس الأمة الإسلامية، فأصبحت مخزوناً دينياً ينهل منه كل أديب أراد أن يرسل صورته واضحة المعالم؛ لأنها ماثلة في نفوس المتلقين، فسرعان ما تنجذب صورة النص القرآني وتقترن من النص الأدبي، وذلك يعطي نصه أهمية كبيرة، فالشاعر كلما راودته فكرة

شعورية أراد إيصالها واستعان بمخزونه الديني واستلَّ منه ما يتناسب مع الموقف مدمجاً الموقفين في بوتقة واحدة؛ لتظهر الصور جليّة واضحة في ذهن المتلقي.

وفي ذلك يقول: [40] الطويل

بالِغاً في أَخيكَ ما نالَهُ مو سى وَقَد شَدَّ إِزرَهُ هارونُ

مُذ دَعوهُ تاجاً تَمَنّى هِلالُ ال أُفقِ لَو أَنَّهُ الغَداةَ جَبينُ

فالشاعر ينظر في هذه الأبيات إلى قوله تعالى: [41]﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ [مريم: 53]

وقوله: [42]﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [المؤمنون: 45]

وقوله: [43] ﴿وَجعَل لِّي وَزِيرا مِّن أَهلِي ٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ٣٠ شدُد بِهِۦٓ أَزرِي ٣١ وَأَشرِكهُ فِيٓ أَمرِي ٣٢﴾ [سورة طه: 29 – 32].

يستدعي الشاعر حالة ذهنية ماثلة في ذاكرة المتلقي، يحاورها ليلقي عليها حالة شعورية يمر بها أو يتلمسها، لكنه يخشى أن يوصل ما يريده، حتى لو قال وتفنن بالقول.

لكنه بذلك قد يمنح نصه قوة احتجاجية وجمالية تنقل رؤاه وغايته بفاعلية يتصدرها ذهن المتلقي حيث يستدعي مخزونه الديني مما يثري العمل الأدبي ويقويه.

تظافرت مسوغات عديدة جعلت الشاعر يعظّم الحس الديني، على وجه الخصوص ما يستمده من القرآن الكريم، حيث كان يحلق بذاكرته وحي آيات القرآن الكريم وتعاليمه مع ما اختمر عنده من إبداع من بيئته وعصره، ليظهر أشعاره بكسوة مطرزة بألوان عصره ممزوجة بعبق القرآن ورياحينه.

يقول: [44] الطويل

حقَان قَدْري عَنْ مَعْشَرٍ يُحْرَمُ السَّا ئِلُ فِيهِمْ وَيُمْنَعُ المَاعُونُ

الشاعر يستوحي البيت من قوله تعالى [45]: ﴿وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾[الذاريات:19]

وقوله تعالى [46]: ﴿ ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ ٦ وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ ٧﴾[الماعون: 6 – 7]

يستوحي الشاعر معانيه وأفكاره من الآيات القرآنية، فيأخذ المعاني ويدخلها نصه بمقصدية قد تختلف بعض الشيء عمّا ورد في آيات القرآن الكريم، لكن النسيج اللغوي كثير من أبياته قد التحم بالصياغة القرآنية، مما منحها وظيفة دلالية تلامس دلالتها الحقيقية في القرآن الكريم، فالآيات تصوّر العطاء والكرم للذين يمنحون السائل الذي يسأل الحاجة والمحروم الذي حُرم المال، فالله ﷻ يمتدحهم، وفي الآية الثانية تتحدث عن تتحدث عن الذين يمنعون الخير والمعروف والبر عن الناس، فهم لا يحسنون.

وضع الشاعر المتلقي في أجواء إيمانية يستحضرها حال قراءته للنص الشعري، فقدت تقاطعت الكلمات والعبارات، مع آيات القرآن الكريم، ولكنه يترك له ترتيبها وإعادتها إلى أماكنها الأصلية؛ لأنه يعي المعاني العميقة لهذه الآيات، فأراد أن يتمثلها لممدوحه الذي يتميز بما وصفه خالق الخلق لفئات من الناس كشف عن فهم عميق يتمثله الشاعر، ويرسله إلى متلقيه بصورة واضحة المعالم.

قد توحي المناسبة بنصّ قرآني، يستحضر معه قصص دينية، تطفو على سطح النص، يلتقطها المتلقي ويستحضر مكملاتها، فترتسم الصورة واضحة المعالم؛ كما في قوله واصفاً نفسه: [47] السريع

كَأَنَّني يَعقوبُ في الحُزنِ بَلْ أَيّوبُ في البَأساءِ وَالضُرِّ

فالبيت يستحضر سورة سيدنا يوسف وسورة (ص)، حيث أراد الشاعر أن يصل إلى قمة حزنه، بل يتخطى إلى صبر أيوب وذلك يقودنا إلى قصص قرآنية، تعبر عن أعلى درجات الحزن، فقد ابيضت عينا يعقوب حزناً على ابنه، وكأن الشاعر قد وقف عاجزاً عن وصف حزنه وذلك أوصله إلى الصبر المنقطع النظير فوجده متمثلاً بسيدنا أيوب.

[48] ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنهُم وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبيَضَّت عَينَاهُ مِنَ ٱلحُزنِ فَهُوَ كَظِيم﴾ [يوسف: 84]

وردت آيات كثيرة في القرآن الكريم تتحدث عن حزن سيدنا يعقوب [49]، ﴿وَٱذكُر عَبدَنَآ أَيُّوبَ إِذ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ لشَّيطَٰنُ بِنُصب وَعَذَابٍ﴾ [ص: 41] [50]﴿وَأَيُّوبَ إِذ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ لضُّرُّ وَأَنتَ أَرحَمُ لرَّٰحِمِينَ﴾[الأنبياء: 83]

لم يكتفِ الشاعر بالوصف المعتاد لنفسه حتى يعبر عن مرحلة عمرية قد مرَّ بها حينما فقد بصره، فاستلهم قصص دينية عبرت تعبيراً صادقاً جلياً بصور الحالة الشعورية التي يعيشها الإنسان المكلوم.

حيث مثل في أذهاننا متعلقات تُذكر فيذكر معها ما يلازمها فحينما يذكر يعقوب يرافقه حزنه، وحينما يذكر أيوب نستدعي صبره.

-الإشارة والتلميح:

كثيرة هي الصور التي تجول في خاطر الشاعر ويريد أن يحدثنا عنها، فيتلمس ما يناسبها من قاموسه أو مخزونه الفكري والديني، لينسج منها حالة شعورية يعيشها المتلقي في بوتقة واحدة أحدهما تستدعي الأخرى، حتماً هذا يتطلب مخزوناً فكرياً لدى المتلقي حتى يصبح شريكاً في إنتاج

الدلالة المقصودة، وذلك عامل تحفيزي لذهن المتلقي لأن الشاعر قد ترك له مساحة يستقصي ويفتش في زوايا الذاكرة ما الذي ينسجم ويتناسب مع المقصود، فالشاعر قد لمح وأشار إلى معنى دون أن يذكر مباشرة في السياق، وربما ذلك يكون عائقاً أمام المتلقي بأن يصل إلى المقصود؛ لأن الإشارة والتلميح بحاجة إلى إمعان وتدقيق للوصول إلى الغاية المرجوة.

ومن ذلك قوله: [51] الكامل:

وَالدَهرُ بِالإِرزاءِ وَالنَكَا باتِ مَبسوطُ اليَدَينِ
وَأَناخَ في آلِ النَبيِّ مُجاهِراً بِرَزِيئَتَينِ
فَبَدا بِرُزءٍ في أَبي حَسَنٍ وَثَنّى بِالحُسَينِ
المُدلِيَينِ إِلى النَبِيِ مُحَمَّدٍ بِقَرابَتَينِ

يعلل الشاعر نفسه بهذهِ النكبات التي وقعت بأشرف الخلق، ويخلص إلى حقيقة مفادها بأن الدهر يبسط يديه فيوقع بالخلق نكباته دون اعتبار لأصحابها، وذلك يقودنا إلى حقائق وقعت كان لها بالغ الأثر في النفوس لقداسة أصحابها؛ وقربهم من النبي (ﷺ) فلم يسلموا من هوله وفجيعته وهما الحسن والحسين سبطاه رسول الله.

يذكرنا في قوله تعالى [52]: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذهِبَ عَنكُمُ لرِّجسَ أَهلَ لبَيتِ وَيُطَهِّرَكُم تَطهِيرا ﴾[الأحزاب:33]

يتخذ الشاعر أشكالاً متعددة لاستدعاء الوقائع والحوادث التي تشكّل معادلاً موضوعاً في ذهنه تتناسب مع حوادثه الآتية وتنسجم معها؛ ليوظفها في أشعاره؛ لأن الشعر كفيل بنقلها، "وترجمة حرفية مصطنعة للرواية التاريخية" [53].

فالشاعر ينهل من حصين لا ينضب، دستور أمة يصلح لكل زمان ومكان ويتناسب مع كل حادثة يمر بها؛ لذا كان يتنقل بين جناياته ليظفر ببلاغة الموقف وبراعة المعنى ويترك القارئ مجالاً رحباً يكمل ما قد أشار أو أوجز في قوله عساه يصل إلى مراده.

اتكأ الشاعر على استدعاء كثير من الحوادث والقصص الدينية التي تشكل دلالات عظيمة في تاريخ الأمة.

يقول: [54] المنسرح

عَمَّ أَقاصي البِلادِ جَورُهُمُ كَأَنَّهُم في الفَسادِ ياجوجُ

يترك للقارئ أن يستنتج الآية الكريمة التي تتحدث عن يأجوج ومأجوج وما يمتازون به من خراب ودمار، يعقد مقارنة بين النفر الذي يشكو منه ويأجوج، لتقترب الصورة إلى ذهن المتلقي ويصل إلى بشاعة هذا النفر الذي يشبه يأجوج ومأجوج الذين يفسدُن ويهلكون الحرث والنسل،

وذلك يستدعي حضوراً ذهنياً للآيات القرآنية التالية [55]: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ لسَّدَّيۡنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوما لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَولا﴾[الكهف: 93]

وقوله تعالى [56]: ﴿قَالُواْ يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِنَّ يَأۡجُوجَ وَمَأۡجُوجَ مُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَهَلۡ نَجۡعَلُ لَكَ خَرۡجًا عَلَىٰٓ أَن تَجۡعَلَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَهُمۡ سَدّا﴾[الكهف: 94]

حينما ينقطع الأمل ويصل الأمر إلى قمة تأزمه يذهب الشاعر بفكره وخياله إلى ضفاف بعيد عن الواقع المرير فيجنح بخياله إلى حياة بعيدة كل البعد عن الحياة الدنيوية حياة البرزخ المنقطعة عن الحياة.

قائلاً: [57] السريع

ناءٍ عَنِ الأَحياءِ في بَرزَخٍ مُنقَطِعٌ عَن بَينِهِم ذِكري

تمتزج الصورة في ذهن المتلقي حتى تصل إلى حياة البرزخ وما يميزها عن الحياة الدنيوية، فيصل إلى مراده، ولا بد له من استحضار آية قرآنية يعبر عن الحياة البرزخية، قال تعالى: [58]

﴿لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحا فِيمَا تَرَكۡتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾[المؤمنون: 10]

شكَّل سبط ابن التعاويذي من مفرداته صوراً تتناسب مع مواقفه ومراحل حياته، ومزجها بالتخييل الذي فرضته عليه مرحلة عمرية حينما فقد بصره "والتَّخييل أن تتمثل للسامع مع لفظ الشاعر المخيّل أو معانيه أو أسلوبه ونظامه، وتقوم في حياله صورة أو صور ينفعل لتخيّلها جهة من الانبساط أو الانقباض". [59]

فابن التعاويذي يُشرك المتلقي في رسم صوره، وذلك يتأتى من خلال تصوير خياله له؛ مما يجعله يعيش مشاعر الشاعر التي تتخلل مراحل حياته فيبعث في نفسه انقباضاً وألماً ينسجم مع الحالة الشعورية التي يمر بها الشاعر.

ومن هذا يقول: يتوجع لنفسه عند نزول الحادثة يبصره، الرجز [60]

يالَكَ مِن لَيلِ حِجا بِ جُنحُهُ مُعتَكِر

ظَلامُهُ لا يَنجَلي وَصُبحُهُ لا يَسفِرُ

رسم سبط ابن التعاويذي صورة قاتمة شديدة السواد، فالليل لا ينجلي قد تجلبب برداء أسود لا ضوء منه ولا أمل في انجلائه وانكشافه.

وذلك إشارة جلية إلى البؤس الذي استولى على حياته بعد حادثة فقدان بصره. وذلك يتماثل مع قوله تعالى: [61] ﴿وَءَايَة لَّهُمُ لَّيلُ نَسلَخُ مِنهُ لنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظلِمُونَ﴾[يس: 37]. يفيد الشاعر من متعلقات الحياة الراسخة في ذاكرة الأمة، فيحيلها إلى دعائم يبني عليها نصه الشعري، الذي ينسجم مع الموقف الذي يمر به، ما يدل على أن إفادته نابعة عن فهم وإدراك لا للزخرفة والتزين، وإنما جاءت على وفق ما يجعله مصدر إبداع وثراء، فقد استطاع سبط ابن التعاويذي تطويع ثقافته الواسعة لخدمة نصوصه؛ لذا نراه يتكأ عليها بما تحمله من دلالات عميقة تمثل معادلاً موضوعياً لحوادث قد مرَّ بها. لذا نجد حضور النص القرآني بمعانيه المستوحاة وإيحاءاته وأفكاره المتعددة، قد أضفت ثراءً وجمالاً، وزادت من فعاليته التأثير في المتلقي وعمقت التجربة الشعرية عند الشاعر، فهو "مركز الرؤيا الشعرية أثناء لحظات التعبير، والإبداع مؤكدة قابلية الاستلهام الوجداني من القرآن الكريم وأساليبه، وخطاباته المتنوعة، المتجهة صوب الأشواق الروحية العميقة في الإنسان" [62].

فالشاعر حياض القرآن كلما امتثلت في خاطره فكرة، فسرعان ما يلملم أشتاتها، فتظهر بحلةٍ تتناسب تماماً مع الموقف الذي أراد، فمثلاً يقول: [63] الوافر

كَأَنَّ الأَرْضَ مَا اتَّسَعَتْ لِسَاعٍ مَنَاكِبُهَا ولا لِلرِّزْقِ بَابُ

وذلك إشارة إلى آية قرآنية تتحدث عن طلب الرزق والمكاسب، قوله تعالى: [64] ﴿هُوَ لَّذِي جَعَلَ لَكُمُ لأَرضَ ذَلُولا فَمشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزقِهِۦۖ وَإِلَيهِ لنُّشُور﴾[الملك:15]

إن العلاقة التي يقيمها سبط ابن التعاويذي بين نصوصه الشعرية والقرآن الكريم يعمدها ويميزها لأجل دعم أفكاره ورؤيته، ما يمنح تجربته الشعرية خصباً وغناء، فيقف عند محطات كثيرة حتى تختمر الفكرة من ثم تخرج صوب الحدث قد أصابت كبده وحملت دلالات سيميائية عميقة كشفت عن مواقف حياتية متعددة الانفعالات؛ لأن "إنتاج الشعر يحتاج إلى فترات تختزن فيها الأشياء في الذهن مع انعكاستها في النفس، فتمتزج الدوافع بالأفكار حتى تصبح مهيأة للخروج معاً، وحين يستدعيها الموقف تخرج مشحونة بالانفعال" [65]

نلمح من خلال الشعر بأن الشاعر قد أدرك حقائق كونية قد رتبها الخالق في خلقه، فأصبحت بمثابة متعلقات ذهنية في نفوس المؤمنين يستدعيها ويوظفها؛ لأسباب هي: "الإيحاء بمجرى سنة الله عندما يستيئس الرسل، والتلميح بالمخرج المكروه الذي يليه الفرج المرغوب، الإيحاء والتلميح

اللذان تدركهما القلوب المؤمنة وهي في مثل هذهِ الفترة تعيش، وفي جوها تتنفس، فتتذوق، وتستشرف، وتلمح الإيحاء والتلميح من بعيد". (66)

إذ يقول: السريع (67)

تَجولُ مِن بُؤسٍ إِلى نِعمَةٍ طَوراً وَمِن عُسرٍ إِلى يُسرِ
فَكَم نَبيهٍ قَد رَأَيناهُ بِالأَمسِ وَضيعاً خامِلَ الذِكرِ
وَكَم فَقيرٍ باتَ ذا عُسرَةٍ أَصبَحَ وَهوَ الموسِرُ المُثري

تتبدل الأحوال من حالٍ إلى حال، ويتحول العسر إلى يسيرا، وهذا مما ورد في كلام الخالق العظيم في قوله تعالى (68): ﴿فَإِنَّ مَعَ لعُسرِ يُسرًا ه إِنَّ مَعَ لعُسرِ يُسرا﴾[الحشر:5-6]

الخاتمة:

خَلُص البحث إلى أن شعر سبط ابن التعاويذي قد امتزج بتعاليم وألفاظ القرآن الكريم؛ مما أثرى ديوانه الشعري بما أفاده من نص القرآن الكريم؛ لذا كان القرآن الكريم بألفاظه وتراكيبه وصوره وقصصه وأسلوبه، مرجعية دلالية للشاعر سبط ابن التعاويذي، فقد نهل منه ما يتناسب مع مواقفه الحياتية حيث كان يوائم بين ما يقتبسه من القرآن الكريم وأشعاره، فتبدو نسيجاً واحدة ملتحماً متواشجاً ومستقراً في ذهن المتلقي؛ بما يحمله من دلالة أسلوبية أو إيقاعية أو تصويرية، حاكى سبط ابن التعاويذي بعض الآيات القرآنية ونسج على منوالها جملاً شعرية توازيها نمطاً وتركيباً وجرساً موسيقياً، يحفل به المتلقي؛ لأنه استند على ركيزة دينية صلبة حفظت له البقاء والتأثير في ذاكرة المتلقي.

لم يكن ذلك الاستدعاء للنصوص القرآنية عابراً، وإنّما كان ينم عن فهم عميق ودراية بتعاليم القرآن ومنهجه، مما أضفى جمالية فنية على أشعاره مكتسبة من التصوير القرآني وإيحاءاته. حتى غدا عنصراً أساسياً من عناصر تجربته الشعرية، باعتبار النصوص القرآنية مادة ثريّة بالقيم والمعاني، تنسجم في التعبير عن أفكاره ومشاعره ورؤاه الفنية.

الهوامش:

1.البيان والتبين، تحقيق عبد السلام هارون (بيروت، 1996) 1:118: الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر.

2.الاقتباس من القرآن الكريم، تحقيق ابتسام الصفّار، (المنصورة، 1922) 1:39: الثعالبيّ، أبو منصور عبد الملك بن محمد.

3.تاريخ بلاد الشام في عهد الأتابكة والأيّوبيين 490 – 850 (منشورات لجنة تاريخ بلاد الشام، الجامعة الأردنيّة – جامعة اليرموك 1998) 141: إحسان عبّاس.

4.ينظر: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر ابن خلكان (ت 681 ه)، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر، 1948: 90/4، ينظر الوافي بالوفيات، صلاح الدين بن خليل الصفدي، تحقيق محمد إبراهيم ومحمد بن الحسين إسطانبول تركيا، مطبعة وزارة المعارف 1949 جـ4/ص11، النجوم الزاهرة، ابن تغري بردي جمال الدين أبو المحاسن يوسف، مطبعة القاهرة – دار الكتب المصرية جـ6/ص81، معجم الأدباء، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي (ت 626ه) مرجليوث، القاهرة، 1923 :120/5.

5.ينظر: سبط ابن التعاويذي حياته وشعره، نوري شاكر الألوسي، ط 1، مطبعة الأزهر، بغداد - 1975م :43.

6.ديوان أبي الفتح محمد بن عبيد الله بن عبد الله المعروف بسبط ابن التعاويذي (ت 584ه) د/س، مارجليوث، مصر، 1903م: 455 – 456.

7.الكامل في التاريخ، ط 7، دار صادر، بيروت 11: (454) (503) (124): ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن محمد 1426هـ.2005م.

8.ينظر: سبط ابن التعاويذي، حياته وشعره: 185.

9.ينظر: وفيات الأعيان: 90/4.

10.نكت الهميان في نكت العميان: صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، المطبعة الجمالية، مصر، 1911م: 259.

11.شذرات الذهب في أخبار من ذهب، أبو الفلاح عبد الحي ابن العماد الحنبلي، (ت 1089ه) مكتبة المقدسي، 1351هـ :281/4.

12.معجم الأدباء: شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي (ت626ه/مرجليوث القاهرة، 1923: 235/18.

13.ينظر: وفيات الأعيان: 91/4.

14.الأدب في عصر صلاح الدين الأيوبي، محمد زغلول سلام، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، 1959م: 265.

15.ديوانه: (152).

16.سورة الفلق: (1 – 5).

17.ديوانه: (165).

18.سورة العاديات: (100).

19.سورة الرعد: (41).

20.ديوانه: (165).

21.سورة الإنسان: (76).

22.ديوانه: (299).

23.سورة النبأ: (34).

24.الصوفية في الشعر المغربي المعاصر، محمد بن عمارة، ط1، شركة النشر والتوزيع، المدارس، المغرب، 2001م: 156.

25.ديوانه: (328)

26.سورة المزمل: (1)

27.ديوانه: (378)

28.سورة الفجر: (6 – 8).

29.ديوانه: (2)

30.سورة البقرة: (247).

31.النقد الأدبي الحديث، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، (443) ، هلال، محمد غنيمي، د. ت.

32.البديع في نقد الشعر، تحقيق أحمد أحمد بدوي وحامد عبد المجيد (القاهرة: 1960) ، (259) ، أسامة بن منقذ.

33.ديوانه: 239.

34.سورة الناس: (604).

35.ديوانه: (95).
36.سورة الحشر: (21).
37.ديوانه: (482).
38.سورة المدثر: (34)
39.الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، دار المعارف، القاهرة، ط 1، 1973م، ص 13 – 104: عصفور، جابر أحمد.
40.ديوانه: (434).
41.سورة مريم: (53).
42.سورة المؤمنون: (45).
43.سورة طه: (29 – 35).
44.ديوانه: (433).
45.سورة الذاريات: (19).
46.سورة الماعون: (7).
47.ديوانه: (192).
48.سورة يوسف: (84).
49.سورة ص: (41).
50.سورة الأنبياء: (83).
51.ديوانه: (437).
52.سورة الأحزاب: (33).
53.مظاهر من الحضارة والمعتقد في الشعر الجاهلي، عمان، دار عمار، 1991: (165).
54.ديوانه: (75) ، أنور أبو سويلم.
55.سورة الكهف: (93).
56.سورة الكهف: (94).
57.ديوانه: (192).
58.سورة المؤمنون: (100).
59.منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط4، 1428هـ/2007م، ص89،القرطاجني، حازم (684هـ - 1285م).
60.ديوانه: (482).
61.سورة يس: (37).
62.الصوفية في الشعر المغربي المعاصر، ط1، شركة النشر والتوزيع، المدارس، المغرب، 2001م: 148، محمد بن عمارة.
63.ديوانه: (37).
64.سورة الملك: (15).
65.جماليات المعنى الشعري التشكيل والتأويل، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1999م: 9، الرباعي، عبد القادر.
66.يوسف في القرآن، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1984م: 116،البقري، أحمد ماهر محمد.
67.ديوانه: (191).
68.ورة الشرح: (5 – 6).

قائمة المصادروالمراجع:

1.إحسان عبّاس: تاريخ بلاد الشام في عهد الأتابكة والأيّوبيين 490 – 850 (منشورات لجنة تاريخ بلاد الشام، الجامعة الأردنيّة – جامعة اليرموك 1998) 141.

2.أسامة بن منقذ: أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني، (488-584هـ) (1095-1188م) البديع في نقد الشعر، تحقيق أحمد أحمد بدوي وحامد عبد المجيد، القاهرة، 1960م.

3.أنور أبو سويلم، مظاهر من الحضارة والمعتقد في الشعر الجاهلي، عمان، دار عمار، 1991م

4.الألوسي، نوري شاكر، سبط ابن التعاويذي حياته وشعره، مطبعة الأزهر، ط1، بغداد، 1975م.

5.البقري، أحمد ماهر محمد، يوسف في القرآن، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1984م.

6.ابن التعاويذي، أبو الفتح محمد بن عبد الله المعروف بسيط، الديوان، ت 584هـ، د، س، مارجليوث، مصر، 1903م.

7.ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف-مطبعة القاهرة، دار الكتب المصرية، النجوم الزاهرة

8.الثعالبيّ، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن أسماعيل النيسابوري(350هـ-430هـ): الاقتباس من القرآن الكريم، تحقيق ابتسام الصفّار، المنصورة، 1922.

9.الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر: البيان والتبين، تحقيق عبد السلام هارون بيروت، 1996م.

10الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ت 1089هـ، مكتبة المقدسي، 1351هـ

.11. ابن خلكان، شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر (608هـ-681هـ) (1211-1282م)، وفيات الأعيان وأنباء الزمان، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر، 1984م.

12.الرباعي، عبد القادر، جماليات المعنى الشعري التشكيل والتأويل، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1999م.

13.سلام، محمد زغلول، الأدب في عصر صلاح الدين الأيوبي، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، 1959م.

14.شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت الحموي، (ت 626هـ) مرجليوث، معجم الأدباء، القاهرة،1923.

15.الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك، نكت الهميان في نكت العميان، المطبعة الجمالية، مصر، 1911م: 259.

16.الصفدي، صلاح الدين بن خليل بن عبدالله (ت764هـ)، الوافي بالوفيات، تحقيق محمد إبراهيم ومحمد الحسين ومحمد بن الحسين، إسطانبول تركيا، مطبعة وزارة المعارف.

17.عصفور، جابر أحمد: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، دار المعارف، القاهرة، ط1، 1973م.

18.غنيمي، هلال محمد، النقد الأدبي الحديث، د.ت، دار النهضة، مصر للطباعة والنشر، القاهرة.

19.القرطاجني، حازم، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط4، 1428هـ،2007م.

20.محمد بن عمارة، الصوفية في الشعر العربي المعاصر، ط1، شركة النشر والتوزيع، المدارس، المغرب، 2001م.